أبو بكر القاضي
الداء والدواء
بشرح الدكتور أبوبكر القاضي
المحاضرة الثانية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)، ثم أما بعد...

إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمدًا (صلى الله عليه وسلم)، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد...

يقول المولى (تبارك وتعالى)...

{...الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[الفرقان:٥٩].

فإن العبد ينبغي عليه إذا أراد أن يسأل عن الرحمن، أو أن يعلم أو يعرف الرحمن، عليه أن يسأل خبيرًا.

والمقصود في هذه الآية على اختلاف بين المفسرين هو جبريل (عليه السلام)، أو الله (عز وجل).

فالله (تبارك وتعالى) يُعرف نفسه إلى عباده، يعرفهم بجماله وجلاله وكماله، يتحدث عن نفسه، ويمجد نفسه؛ لأن له (تبارك وتعالى) الكبرياء والجلال والجمال.

وهو أعرف بنفسه من غيره (تبارك وتعالى...

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[الزمر:٦٧].

المقصود أنه ينبغي على الإنسان أن يعلم أن أغلى ما يملك في هذه الحياة هو قلبه، وأن أعظم نعمة تتم عليه هي نعمة دينه.

{...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة:٣].

فلا تتم النعمة إلا بإكمال الدين، ولا تتم نعمة الله عليك حتى يكمل دينك وإيمانك، واستسلامك وانقيادك، وتدينك والتزامك.

وعلى قدر كمال هذا الدين أو نقصه، يعني كمال سيرك إلى الله (تبارك وتعالى) قلبًا وقالبًا، وظاهرًا وباطنًا.

فإن كثيرًا من الناس قد يكون عنده أصل الإيمان، ولم يكتمل بعد الإيمان الواجب في قلبه مثلًا.

فضلًا عن قدر الإيمان المستحب، فعلى قدر الكمال والنقص في شعب الإيمان

وفي حقيقة الإيمان في قلبك على قدر ما نقول أن الله أنعم عليك وأتم عليك النعمة أم لا؟

بمعنى أن حقيقة النعمة هي في حقيقة التوفيق للهداية.

لذلك قال تعالى...

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧].

من المُنعَم عليهم؟ أي أهل النعمة المطلقة الكاملة، هم أهل العلم والعمل.

كما قال تعالى...

{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} [النساء:٦٩].

فهؤلاء هم أهل النعمة المطلقة.

ولذلك أثار ابن القيم (رحمه الله) في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية" سؤالًا وقال: هل لله على الكافر نعمة؟!

لو نظرت إلى المنظور الدنيوي فتقول هناك نِعَم، ولكن لو نظرت إلى النعمة الحقيقية ستجد أنه لا.

لأن كل النعم التي تراها نِعَم على أهل الكفر ستتحول إلى حجج، ستتحول إلى عذاب.

{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٥٥].

إذًا النعم التي أنت تراها نعم هنا في الدنيا، لو أُنعم بها على كافر ولم يستخدمها في طاعة الله، ولم يقم بشكرها فهي عذاب، هي ليست نعمة.

ولذلك قال تعالى...

{فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر:١٥-١٦].

كلا.

ما معني ذلك؟

هذا الميزان خطأ، ليس من أكرمته ونعمته بالدنيا هو المكرم، وليس المقدور عليه رزقه، المُضيق عليه رزقه في الدنيا هو المهان.

فما هو ميزان الإكرام والإنعام، وميزان الإهانة؟! هو التوفيق للطاعة.

لذلك قال تعالى...

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج:١٨].

ضع خط أسفل "وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ".

عرفنا ما معني الإهانة والإكرام من سياق الآية، الذي يسجد لله هو المكرم، يسجد قلبه وقالبه، والذي لم يسجد هو المحروم المطرود المهان.

فلو نظرت وقلت هل لله على الكافر نعمة؟!

لو قلنا نعمة مطلقة لها آثار في الدنيا والآخرة فلا، أما النعمة المقيدة التي تكون في الدنيا لذة، ثم يعقبها آلام في الدنيا والآخرة فنعم؛ لأن أي ينعمها الله عليك إما أن تكون نعمة فعلًا أو تكون فتنة.

على حسب تعاملك مع النعمة، فإذا تعاملت معها بالشكر، الاعتراف بالنعمة باطلًا والتحدث بها ظاهرًا، واستخدام النعمة في خدمة المنعم، سيزيدك الله منها وستكون عليك نعمة لأنك استخدمتها في طاعة الله.

أما إذا تعاملت على أنها ملك لك، ونسيت بها المنعم وحقه فإنها تكون في حقك فتنة.

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٨].

متى؟

حين تشغلك عن الطاعة حين تنسيك المنعم.

قال (صلى الله عليه وسلم): "إنَّ الوَلَدَ مَبخَلَةٌ مَجبَنَةٌ مَحزَنَةٌ مَجهَلَةٌ".

أربعة أشياء:

- الولد مجبنة، سبب للجبن عن القتال في سبيل الله.
- مبخلة، سبب للبخل عن الإنفاق في سبيل الله.
- محزنة، سبب للحزن، حزنًا يعطلك ويشغلك عن الله.
- سبب للجهل، مجهلة، سبب للتعطل عن طلب العلم.

أنت مشغول، أنت ليلًا ونهارًا في طاحونة.

فكيف تستطيع أن تطلب علمًا؟! وكيف تطلب زيادة علم وترقي؟!

نحن نحسب الوقت بالقرش، لماذا يحدث ذلك؟! لماذا أصبحنا نحسبها بهذا الشكل؟! من أجل أولادي.

كم من الوقت سيتذكرك أولادك بعد موتك؟!

كم صدقة جارية سوف يفعلها لك أولادك؟!

كم سيضيفوا في موازين حسناتك؟! لو شغلوك عن الله.

فنقول أن العبد ينبغي عليه أن يعلم أن أعظم ما يملكه هو قلبه، وأعظم نعمة تتم عليه أن يتعلم دينه ويعمل به.

ولذلك ينبغي عليه أن يشد الرحال في طلب علم هذا الدين.

ينبغي عليه أن ينظر عمن يأخذ دينه، إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، دين يعني جنة ونار، دين يعني عقاب أو ثواب، دين يعني خسران الأبد أو نجاة الأبد.

{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}[الطارق:١٣-١٤].

فالأمر يؤخذ بجدية.

{يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}[مريم:١٢].

{...خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:٦٣].

قوة لماذا؟! لأنك تحتاجه.

لماذا تأخذ هذا الأمر بقوة؟!

عندما أقول لك هذا الشيء تأخذه بقوة، لماذا؟! لماذا تعض عليه بيديك وأسنانك؟!

عضوا عليها بالنواجذ، لماذا؟ إشارة إلى ماذا؟

{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[الزخرف:٤٣].

لماذا استمسك وليس امسك؟

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[الأعراف:١٧٠].

والذين يُمَسِّكُون بالكتاب، ليس يمسكون.

لماذا تتشبث؟! لماذا تعض؟! لماذا تأخذ بقوة؟!

لأنك محتاج، تمامًا مثل الشخص الذي يغرق، ترمي له حبل، ترمي له طوق نجاة، لا يأخذه بل يتعلق به، لماذا يتعلق به؟!

لأنه يغرق، لأنه يريد أن يتنفس، ويريد أن يعيش، حلاوة الروح، احتياج.

الاحتياج إلى الهداية أشد، الاحتياج إلى ربنا أشد، الاحتياج للعلم بالله، وعن الله، وعن أمر الله، وعن نهي الله، وعن شرع الله أشد.

تقول لي لماذا نحن لسنا مستحضرين لهذا الاحتياج؟! لأن القلوب في غمرة.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}[المؤمنون:٦٣].

ففي بعض الناس يقول لك نحن لا نطلب العلم لأننا منشغلين، لا أنت لست منشغل، بل قلبك هو المنشغل، قلبك مشغول، ومشوش، وتائه، قلبك مشحون بالشهوات والشبهات وسفاسف الأمور.

هذا القلب المشحون هو الذي جعلك مشغول.

يعني عندما نعالج هذه المشكلة، "وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ"، فهؤلاء الناس ليسوا متفرغين، الفجرة والكفرة ليسوا متفرغين، الفسقة العصاة ليسوا متفرغين، بالعكس يومهم مشغول.

مشغول بماذا؟ مشغول بسفاسف الأمور، ومشغول بالمعاصي.

لماذا انشغل القالب بالمعصية؟ لأن القلب انشغل بالمعصية.

عندما نحاول حل هذه المعضلة لا تقول لي الوقت وتنظيمه والجداول، لا، التوبة قبل كل هذا، قبل كل هذا تخلية القلب، أفرغ قلبك حتى تفرغ وقتك.

وهذا أصل التزكية، أصل تزكية النفوس التي جاء بها الرسل.

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[البقرة:١٥١].

وقدم التزكية قبل تعليم الكتاب والحكمة؛ لأنها المقصود من تعليم الكتاب والحكمة أي القرآن والسنة، المقصود منها أن تتزكى، أن تتطهر، أن ترقى، أن تعلم، أن تعمل، أن تخشى، أن تقترب، أن تأتي الله بقلب سليم.

المقصود الأكبر للتزكية أو أساس التزكية الذي تنطلق منه التزكية أولًا هو التخلية.

ما معنى التخلية؟

أن يفرغ القلب من السموم، أن يفرغ القلب من الشهوات والشبهات، أن يفرغ القلب من المعاصي والنفاق، أن يفرغ القلب من الشرك والكفر والفسوق والعصيان.

قبل أن أضع في القلب ورد، وأضع فيه أعمال قلبية، وأضع فيه معلومات بتفاصيل الحلال والحرام، وتفاصيل أصول الفقه، وتفاصيل مصطلح الحديث، وتفاصيل تفاصيل، لا، هكذا أدخلت هذه المعلومات في قلب نجس، سيستخدم هذه المعلومات ويكون عالم فاجر، وعالم سلطان، وعالم يأكل بدينه، وعالم يبيع الفتاوى بالمال؛ لأن قلبه متدنس بحب الدنيا، بالشهوات الظاهرة والشهوات الخفية.

الخفية إرادة العلو في الأرض، يقرأ ليقال قارئ، ينفق ليقال منفق، يجاهد ليقال مجاهد.

يدعو ليقال داعية، يتعلم ليقال علامة، عالم، فهامة.

فعندما سيحفظ الكتب سيحفظها لأجل هذا الأمر.

لذلك البداية إن أنت تخلي هذا الأمر، تطهره، تفرغه وتنظفه.

ولذلك كتاب الداء والدواء يعالج هذه السموم، يعالج المعاصي، يعالج المنكرات، يعالج تعظيم النهي وتعظيم الناهي، الله في قلبك، أن تعظم الحرمات.

{ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج:٣٢].

أن تعظم أن ترتكب نهيًا، أن ترتكب معصية، أن تعظم هذا الأمر.

وهذا نحن نطلق عليه في علم النفس

العلاج المعرفي السلوكي، ما معنى العلاج المعرفي السلوكي؟

يقول لك هذا العلاج المعرفي إننا نعالج قناعاتك أولًا.

الأفكار، التصورات، العقائد، فعندما نعالج التصورات والعقائد والقناعات، الأفكار ستؤدي إلى مشاعر، ستبدأ أن تدرك ما هو الحسن، ما هو القبيح، ما هو الحق، ما هو الباطل، ما هو الحلال، ما هو الحرام، ما هي السنة، ما هي البدعة.

فيكون هذا التعديل المعرفي، التعديل العقدي الفكري سيترتب عليه تعديل في المشاعر.

أن تبدأ قوة وطاقة الحب عندك تتوجه إلى الحسن، إلى الحق، إلى السنة، إلى الحلال.

وقوة البغض، لابد أن تُبغِض، تتوجه إلى كل ما هو حرام، كل ما هو يغضب الله، كل ما هو بدعة.

ثم ماذا بعد تعديل الأفكار والمشاعر؟

يتعدل السلوك، يبدأ الإنسان أن يطبق، يأتمر بالأوامر وينتهي عن النواهي.

الذي جاء لنا هنا يسأل الإمام ابن القيم يقول له: أنا عندي مصيبة، ما هي المصيبة؟ أنا عندي مرض فتاك، يفتك قلبي بلا رحمة، ما هذا المرض؟

العشق، العشق المحرم، استولى على قلبي، أنا مريض.

هذا الشخص جاء لك ويطلب دواء مع شدة مرضه، كل ما يحاول يُعالج يقع. نحن قلنا هذا الكلام الدرس الماضي.

يعني أنت يمكن أن تكون تحاول بشكل خطأ، فضلًا إن العلاج الصحيح يحتاج إلى وقت.

يعني أنت ممكن أصلًا تكون متعالج بشكل خطأ، بأن أنت لم تستشر طبيب.

نحن نتحدث في كل أنواع الطب، طب الأبدان وطب الأرواح، لابد أن تستشيروا طبيبًا.

لذلك قلنا الرحمن فاسأل به خبيرًا.

مثلما هناك أطباء للأبدان، هناك أطباء للقلوب والأرواح، وهم الأنبياء وورثة الأنبياء.

أنت لم تستشر طبيب، ومستمر في علاج وفي خطة علاجية، بكل بساطة ممكن الخطة العلاجية تكون خطأ، أنت تسير خطأ.

أو استشرت وتسير في خطة علاجية من خلال طبيب، انتبه لابد أن تصبر؛ لأن العلاج يأخذ وقت، ففي كل الأحوال تحتاج وقت.

هذا الوقت يمكن أن يصيب الشخص المريض باليأس، أليس كذلك؟

وممكن هذا اليأس يكون أخطر من مرضه، إن هو يترك العلاج، وييأس ويرتد، يحدث له ردة أشد، وينتكس ويرتكس مرة أخرى إلى الذنوب.

نحن نقول هذا الكلام لكل شخص يعالج نفسه من إدمان، الإدمان كما قلنا ليس إدمان المخدرات فقط، ولا إدمان الكحوليات فقط، ولا إدمان الإباحيات فقط، ولا إدمان العادة السرية فقط، لا، هذا يشمل أيضًا حتى إدمان البشر.

ما معنى إدمان البشر؟

هل هناك من يدمن شخص؟!

نعم، أنا أقول لك هذا هو العشق، يدمن علاقة مسمومة، علاقة بتصده عن الله ويدمنها.

نعم، يقول لك أنا لا أتصور الحياه بدونه، ممكن يصل به الأمر إلى الكفر الأكبر.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...}[البقرة:١٦٥].

ممكن الإنسان يعشق مَنْ علاقته بها مباحة؟!

يعني ممكن يعشق زوجته مثلًا؟

هو علاقته بها مباحة في الأصل، لكن هذا التعلق المرضي جعل هنا هذا التعلق حرام.

أصبحت زوجته هي سيدته، تأمره وتنهاه، حتى وإن لم يتوافق هذا مع شرع الله، يعني لو تريد منه معصية ولو ستغضب سيفعلها.

هذا هو المعيار، التعارض.

ما هو المعيار؟

أنا لدي الآن إشكال، فالأصل أن هناك حب جبلّي، حب للأب، وللأم، وللابن، وللزوج، هذا حب جبلّي.

هل يلام عليه الإنسان؟!

لا، لا يلام، لكن هذه المحبة الجبلية إذا عارضت، حصل تعارض مع المحبة الشرعية بحيث تؤثر هذه المحبة الجبلية على ما هو واجب، أو يفعل الحرام شرعًا فنحن هنا تخطينا القدر المسموح من المحبة الجبلية، ودخلنا في المساحات المقدسة التي لا تجوز إلا لله.

نعم، هناك مساحات في القلب لا تجوز إلا لله.

هذه ماذا تكون؟

"قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا"، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "قاعدة في المحبة": هنالك اتخذت امرأة العزيز يوسف ندًا تحبه كحب الله، هنا الشرك ملأ قلبها.

المشكلة أن الحب من هذه النوعية مؤلم جدًا.

عندما تأتي بشطة وتضعها في عينيك، بماذا تشعر؟

تشعر إن الدنيا صعبة، فهو بالضبط كذلك.

هذه المساحة في القلب مخلوقة لحب الله.

البشر في الأسفل، هذه في الأعلى، لو رفعت أنت البشر لأعلى فتكون قد وضعت الشطة في عينيك، تظل تُذل وتُهان وتضرب رأسك بالجدار.

ما الذي يحدث؟ لماذا كل هذا؟ من أحب غير الله عُذِب به ولابد، محبة كلها عذاب.

لذلك تسمع أن الحب هو العذاب، وتجد روايات العشاق، وروايات الأدباء نحن في عذاب، وتجد من تنتحر وتقتل نفسها، وتكره نفسها، وتكره حياتها.

ما هذا الحب الذي جعلك تكره نفسك؟ وتقتل نفسك؟ وتأذي نفسك؟ وتبيع دينك؟

هذا هو الحب المحرم، هذا ليس فقط حبًا محرمًا، بل قد يصل به الإنسان إلى الكفر.

أنا أريد أن أتعالج، أنا جئت لأتعالج.

أول شيء لكى تتعالج أن لا تيأس، أول شيء لكى تتعالج أنك توقن أن هناك علاج، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وأن الله قادر على شفائك.

{قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[مريم:٩].

بعد كل تلك الجرائم التي فعلتها؟

بعد كل هذا التعلق المرضي؟ بعد كل هذا الكفر؟ بعد كل هذا الفجور؟ بعد كل زنا النظر؟ وزنا السمع؟ وزنا اليد؟ وزنا الرجل؟ وزنا الفرج؟

بعد كل هذه الغدرات والفجرات والخيانة؟ هناك علاج.

يبقي أولًا سنعدل فكر هذا المريض، أول فكرة سوف نزرعها هي فكرة الأمل، فكرة عدم اليأس.

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر:٥٣].

فكرة الأمل فكرة مهمة جدًا للتائبين، وكلنا أصحاب ذنوب ونحتاج لتوبة.

الأمل، وأن الله (تبارك وتعالى) لا ييأس من روحه ورحمته إلا القوم الكافرون.

{قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}[الحجر:٥٦].

ما هي الفكرة التي حطمها الراهب الجاهل حين جاءه الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا؟

قال: ألي توبة؟ قال: لا، فقتله، فأكمل به المئة.

لماذا قتله؟ لأنه قتل فكرة الأمل في نفسه.

عندما تُقتل فكرة الأمل، ماذا يحدث؟ الإنسان يرتد، ما معنى يرتد؟ يرتد ليس معناها يكفر، لا، يرتد مرة أخرى المعصية، ينتكس، يرتكس، لماذا؟

لأنه ليس لديه شيء ليخسره، هو ضائع ضائع، فلذلك قتله أيضًا.

ولذلك الذين يُيَئِّسون الناس أو ينفرون الناس من روح الله (تبارك وتعالى) يتسببون في مزيد المعاصي، مزيد من الانتكاس.

لذلك أول فكرة وضعها ابن القيم هنا في الكتاب هي فكرة الأمل، وحسن الظن بالله (عز وجل).

قال (رحمه الله): الحمد لله أما بعد...

فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "ما أَنْزَلَ اللَّهُ داءً إِلَّا أَنْزَلَ له شِفاءً".

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ، فإذا أُصِيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ".

وفي مسند الإمام ابن أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "ما أنزل اللهُ داءً إلا أنزل له شفاءً علمَهُ من علمه وجهلَه من جهِله".

وفي لفظ "تداووا فإنَّ اللهَ لم يضَعْ داءً إلا وضَعَ له دواءً غيرَ الهِرَم". [إسناده صحيح].

ما معنى الهرم؟ الكبر في السن.

ركز في الكلمة الآتية...

قال ابن القيم: وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

ما معنى ذلك؟ يعني ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء.

هل هذا الداء بدني فقط؟ لا، هذا داء القلب وداء البدن، هذا عام في كل الأدواء.

إلا أنزل له دواء، هذا الدواء للبدن فقط؟ أو للقلب فقط؟

عام، لا يوجد مرض قلبي، ولا مرض روحي، ولا مرض بدني قدر الله وجوده في هذه الحياة الدنيا ابتلاءً إلا له دواء، إلا له شفاء.

أين الإشكال هنا؟ علمه من علم وجهله من جهله.

كونك لا تعرف ليس معناه العدم، فعدم علمك ليس معناه العدم، كونك لا تعرف ليس معناه أنه غير موجود، هو موجود

بس أنت لا تعرف.

الذي لا يعرف، ماذا يفعل؟ يسأل.

ثقافة السؤال، ثقافة طلب العلم،

ثقافة متى تقول لا أعرف، وأريد أن أعرف، هذه نقطة مهمة جدًا.

يقول وقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

هذا الذي افتتحنا به المجلس.

{...الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[الفرقان:٥٩].

لماذا العلماء؟ لأن العلماء أطباء.

بكل بساطة نحن تحدثنا في هذا الموضوع الدرس الماضي.

أنت الآن لديك مرض، لن تذهب لطبيب ممارس عام، سوف تطلب أخصائي أو استشاري أو طاقم جامعي، كلما صعبت الحالة كلما طلبت الأعلى، لماذا؟

العمر ليس هدرًا، الصحة ليست هدرًا، أنا أتفق معك، والقلب والروح والدين ليسوا هدرًا، فلابد أن أختار طبيب حاذق، يُشهد له من الأطباء أنه ماهر،

التي هي الإجازات، معه شهادات، يُحصل، يذاكر، يتعلم.

فهذا ديني وديني ليس هدرًا، آخرتي وآخرتي ليست هدرًا، قلبي وروحي وقلبي وروحي ليسوا هدرًا.

فروى أبو داوود في سننه من حديث جابر ابن عبد الله (رضي الله عنهما)

قال: "خرَجْنا في سفَرٍ فأصابَ رجلًا منَّا حجَرٌ فشجَّهُ في رأسِهِ ثمَّ احتَلَمَ فسألَ أصحابَهُ فقالَ هل تَجِدونَ لي رخصةً في التَّيمُّمِ فَقالوا ما نجِدُ لَكَ رُخصةً وأنتَ تقدرُ علَى الماءِ فاغتسَلَ فماتَ فلمَّا قدِمنا علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أُخْبِرَ بذلِكَ فقالَ قَتلوهُ قتلَهُمُ اللَّهُ ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا فإنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ إنَّما كانَ يَكْفيهِ أن يتيمَّمَ ويعصرَ - أو يعصبَ شَكَّ موسَى - علَى جرحِهِ خرقةً ثمَّ يمسحَ عليها ويغسِلَ سائرَ جسدِهِ".

[حسن دون قوله: "إنما كان يكفيه"].

خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر، أصابه حجر فشجه في رأسه، فُتحت رأسه، ثم احتلم، نام احتلم فأنزل.

فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم؟

أنا لدي جرح، وجرحي مازال مفتوحًا،

والجرح يمكن أن يتلوث لو أنا اغتسلت، فماذا أفعل؟

اغتسل.

لماذا؟

ذلك هو الموضوع، هذا الذي نعرفه، لا مشكلة قل لا أعرف.

قالوا ما نجد لك رخصة، لا يوجد رخصة.

لذلك هناك أناس يظنون أن إعطاء الرخص ليس علمًا، وأن العلم هو التشدد.

أن أقول لك الأحوط، الأروع، الأضيق، لا، هذا ليس العلم.

قال سفيان الثوري: إنما العلم رخصة من ثقة.

الكل يجيد التشدد، لا توجد مشكلة أن أتشدد، أقول لك أجلس في بيتك لا تخرج منه، أضيق عليك بكل التفاصيل، لماذا؟ هذا هو الأحوط، أنك لا تفعل أي شيء، لا تقابل أحد، كل تفاصيل حياتك أقول لك لا أقفل، أقفل، طبعًا كله يجيد ذلك.

فماذا هو العلم؟ حقيقة العلم الرخصة من ثقة.

ما معني رخصة من ثقة؟ يعني من عالم ثقة، الرخصة بدليل، يقول لك هذا جائز والدليل قوله (صلى الله عليه وسلم)، والدليل فعله (صلى الله عليه وسلم)، والدليل تطبيقه للآية كذا (صلى الله عليه وسلم).

الدليل الإجماع الذي نقله فلان، الدليل فعل الصحابي فلان، على حسب درجات الأدلة.

فقالوا ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء.

فأنا عندي في فقد الماء نوعين،

فقد مادي، وفقد معنوي.

الماء لا يكون موجود، طبيعي سوف تتيمم، لكن يمكن أن يكون الماء موجود وبالنسبة لك أنت مفقود.

كيف؟

مفقود معنويًا، لماذا؟ لأنه سيترتب على استخدامه ضرر، فيكون في حكم المفقود.

فاغتسل فمات، الرجل اغتسل فمات.

فلما قدمنا على النبي (صلى الله عليه وسلم) أُخبر بذلك، فقال: "قَتلوهُ قتلَهُمُ اللَّهُ".

أنت متخيل غضب النبي (صلى الله عليه وسلم)؟ ومتخيل الجرم الذي ألصقه بهم؟

هو في الحقيقة القتل هنا لم يتم بشكل مباشر، ولم يتم عن سبق إصرار وترصد، لكن القتل تم بطريقة غير مباشرة من خلال التسبب في ذلك.

فسمى النبي (صلى الله عليه وسلم) من تسبب ومن أوصل الى القتل بطريق غير مباشر أنه قتل الضحية.

هذا يدلك على خطر التسبب في المجمل، وخطر الإفتاء بغير علم.

لكن هذا الأمر متكرر في سنة النبي، الكلام عن المتسبب أنه فاعل.

يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "إنَّ مِن أكْبَرِ الكَبائِرِ أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ. قيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، وكيفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ قالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أباهُ، ويَسُبُّ أُمَّهُ".

لست أنا من سببت أبي وأمي.

لا، أنت كنت سبب إن هم يُسبوا، فتكون كأنك فعلت ذلك، ما دمت تعلم أن أثر ونتيجة فعلك سيترتب عليه ذلك.

لذلك قال ربنا في سورة الأنعام...

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام:١٠٨].

فتكونوا قد تسببتم في سب الله، لابد حتى أن إنكارك على المنكر يكون معلوم النتائج، تُقدر المصلحة والمفسدة، والقدرة والعجز، حتى لا تتسبب في شر أكبر.

وكذلك في الإفتاء، وكذلك في تشخيص الأدواء، وكذلك في إجابة الناس.

إن أنت تدرك ما الواقع حولك، تدرك الضرر والنفع، الخير، الشر، المصلحة، المفسدة، النتائج، هذا الذي أمامك ماذا سيفعل بالفتوي التي ستقولها له.

فابن عباس (رضي الله عنه) له إجابتان عن سؤال واحد، هل لقاتل النفس توبة؟

له إجابة بنعم، وله إجابة بلا.

قتل النفس ذنب مثل أي ذنب له توبة.

الإجابة الثانية التي هي بلا، قال رأيت في عينَي الرجل القتل.

ما هذا؟

هل أنا المفروض أنظر في عين السائل؟

نعم، المفروض أن يكون عندك فراسة وخبرة وبصيرة، وإما أن لا يكون لك علاقة بالإفتاء.

الفقه ليس فقه الشرع فقط، فقه الشرع، وفقه النفس، وفقه الواقع.

حتى تضع يدك في علاج الواقع لا تكون أنت السبب لتفاقم الأمراض.

قال (صلى الله عليه وسلم): "قَتَلوهُ قتلَهُمُ اللَّهُ".

يا رسول الله نحن لم نكن نعرف، "ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا"، ليس مبرر، "ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا فإنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ".

لا تقول لي أنا لا أعرف، فأنا أعلم أنك لا تعرف، فأنت لو كنت تعرف لأصبحت مع سبق الإصرار والترصد، وكان يمكن أن أقيم عليك الحد.

لكن أنت مذنب، مذنب في ماذا؟ في تقصيرك في طلب العلم.

لذلك حتى في مسائل العذر بالجهل، عندما نقول فلان مثلًا فعل الكفر ولكنه فعله جاهلًا فلا يكفر به.

لكن هل هذا معناه أنه لا يأثم؟

بلى يأثم، لماذا يأثم؟ يقول لك لتقصيره في طلب العلم الواجب.

هو لا يعرف أنه ذنب، فكيف يأثم عليه؟

لأن العلم من شروط التكليف، لكي تكون مكلف أمام ربنا لابد أن تعرف.

{...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}[الإسراء:١٥].

حتى تعلم ببعثة الرسول، ليس مجرد أن يبعث، فمن الممكن أن يبعث الرسول ولم يأتك الخبر.

حديث النبي (صلى الله عليه وسلم): "أربعةٌ يحتجون يومَ القيامةِ : رجلٌ أصمُّ لا يسمعُ شيئًا . ورجلٌ أحمقُ ، ورجلٌ هرِمٌ ، ورجلٌ مات في فترةٍ . فأمَّا الأصمُّ فيقولُ : ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئًا . وأمَّا الأحمقُ فيقولُ : ربِّ جاء الإسلامُ وما أعقلُ شيئًا ، والصبيانُ يحْذِفونني بالبَعْرِ . وأمَّا الهَرِمُ فيقولُ : ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أعقلُ شيئًا . وأما الذي مات في الفترةِ فيقولُ : ربِّ ما أتاني لك رسولٌ . فيأخذ مواثيقَهم ليطيعنَه ، فيُرْسَلُ إليهم : أنِ ادخلوا النارَ ، فمن دخلها كانتْ عليه بردًا و سلامًا ، و من لم يدخلْها سُحِبَ إليها".

أربعة يحتجون على الله يوم القيامة بحجة، منهم الرجل الذي مات في الفترة، يعني في فترة انقطاع الرسل.

فيقول ربي ما أتى إلي منك من رسول، فيكون معذور؛ لأنه لم يبلغه خبر بعثة الرسول.

يعني القضية ليست مجرد أن يُبعث الرسول، لا، بل أن تعلم ببعثة الرسول وبما جاء به الرسول إجمالًا أن لا إله إلا الله، من بلغته دعوة أن لا إله إلا الله.

لذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ".

ضع خطًا أسفل "لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ".

متى؟ عندما يسمع، يسمع عن ماذا؟ عن

بعثة النبي بلا إله إلا الله، فلا يؤمن ويعرض عن تعلم هذه الدعوة فيكون من أهل النار؛ لأنه قد بلغته الحجة.

نعود للكلام مرة أخرى...

ألا سألوا، بكل بساطة أنت لا تعرف، لا مشكلة.

كثير جدًا من إشكالياتنا الإيمانية، إشكالياتنا الدعوية، إشكالياتنا السلوكية، لا نستطيع حلها، عندي معضلة في صلاة الفجر، عندي معضلة في الاستقامة، عندي معضلة في ترك ذنب معين، عندي معضلة في تغيير عادة سيئة، عندي معضلة في خلق معين، ليس مبرر للاستسلام، وليس مبرر للتعامل بالحد الأدنى من الثقافة الشعبية، الفلكلور الشعبي الذي أخذته عن الدين.

أخذت كلمتين في التربية الدينية مع المُدرسة فلانة فتعيش بهم.

لا، هذا ليس مبرر إنك ليس لديك ثقافة، أنا أرى أساتذة جامعة لا يعرفون نواقض الوضوء، أساتذة جامعة يعني يذاكروا مجلدات، لا يستطيعون إنهاء كتاب فقه.

هو ثقافته المُدرسة فلانة في حصة الدين، منذ كم سنة، الذي هو خارج المجموع، ويفتي بها، يعني يا ليته مثلًا جاهل ويسكت، لا، ما أنا أستاذ كبير بفتي أيضًا، وهذا الذي نعرفه.

ولو تقول شيء ثاني، أتباع الدين الجديد

وماذا الذي أتيتم به؟ ومن أين تأتوا بهذا الكلام؟ وأنتم المتعصبين، وأنتم الإرهابيين.

ويقتلون البشر بالجهل، بالفتوى الباطلة، بالتثبيط عن طلب العلم.

يعني كم من أناس يشار إليهم على أنهم علم الجامعي، وفي مرتبة جامعية، يقول لك هو أنتم ماذا تدرسوا؟ توحيد وفقه، ما هذا الكلام؟ هو هذا الكلام محتاج أن يُدرَس؟ ماذا يعني تفسير وحديث وسيرة وتراجم ومصطلح حديث، أصول فقه وقواعد فقهية، وأصول تفسير وقواعد تفسير، ما هذا الذي تفعلونه؟!

وأيضًا تأخذوا فيها ماجستير وأيضًا تأخذوا فيها دكتوراة؟!

يحقرون هذا الأمر، ويثبطون الناس عنه، وتوجه إعلامي كامل في المسلسلات والأفلام إن أي شخص يقول لك تعالى درس، تعالى أحضر كذا يبقى هو يستقطبك، يستخدمك سياسيًا، أو يستخدمك بأي شكل، أو يستغلك بأي شكل من الأشكال.

وسوف يأخذ بيدك إلى التكفير، ويأخذ بيدك إلى الدواعش، وغير ذلك.

هذا أنتم الذين تفعلوه، هذا هو سبب انتشار الدواعش والتكفير، أنكم تركتم الناس يقتلهم أهل البدعة، ويستقطبهم أهل البدع، ويستقطبهم أهل الجهل.

تركتم الناس ما بين ترخص منحل يظهر على الشاشات والإعلام، وتشدد وغلو يستقطبهم بزعم الحماسة والعاطفة.

وأين العلم؟!

ضيقتم عليه الخناق، أن يتعلم الناس كتاب الله وسنة نبيهم، آية آية، وحديثًا حديثًا.

يتعلموا سيرة نبيهم (صلى الله عليه وسلم) في السلم والحرب، مع الموالف والمخالف.

أن يتعلموا أسباب نزول الآيات، أن يتعلموا أسباب ورود الأحاديث.

أن يتعلموا فقه الأحاديث، أن يتعلموا كيفية التعامل مع الواقع من خلال الأحاديث، من خلال سيرة النبي في مكة وفي المدينة، ما بين التمكين والاستضعاف.

تركتم الناس مرتعًا خصبًا لأهل البدع، ولأهل الأهواء فأضلوا الشباب فعلًا، وأدخلوا الشباب في معارك خاسرة، لا أقام الدنيا ولا الدين.

لذلك علاج كل هذا الواقع الذي نراه في التيارات الإسلامية وفي غيرها هو العلم.

"ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا فإنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ".

نحن مرضى بالجهل، نحن مرضى وكل واحد منا عنده قدر المرض، انتبه، أنت القدر من الشريعة الذي تجهله هذا مرض في قلبك.

أنظر كم هو هذا القدر؟

في ناس مثلًا من ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثون آية معهم مثلًا ثلاثة آلاف آية يعرفون معانيها.

كل آية أنت لا تعرف معناها، كل حديث أنت لا تعرف معناه مرض في قلبك، مستكثر ومستقل.

فما شفاء هذا المرض؟

إن أنت تتعلم معنى الآية، تقرأ الآية وتفهمها؛ لأن ربنا لم ينزل كلامًا كي تقرأه بلا فهم، ولم ينزل كلامًا لكي يُهجر.

{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[الفرقان:٣٠].

الهجر طبعًا هجر الإعراض، هجر التلاوة، هجر القراءة، هجر التفسير.

ومن هذا الهجر أن تقرأ و لا تفهم، ومن ثم لا تطبق، ومن ثم لا تدعو،

ومن ثم لا تسعى لإقامة دولة القرآن، كل هذا من هجر القرآن.

فالذين سيقيمون دولة القرآن، ويسعوا لتمكين القرآن في النفوس وفي القلوب كيف لا يعلمون معناها؟!

فالبداية من المعرفة، البداية من العلم، البداية من الشفاء من مرض الجهل.

لذلك بداية طريقك لربنا لابد أن يبدأ بطلب العلم.

لابد، أول واجب على المكلف...

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}[محمد:١٩].

"فليكن أوَّلُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ".

"مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ".

"طلبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ".

"من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا ، سلك اللهُ به طريقًا من طرقِ الجنةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له من في السماواتِ ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ ، وإنَّ فضلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا ، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ".

"فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم".

كل هذا في طلب العلم؟!

{...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة:١١].

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨].

فرحلة الطلب هذه ينبغي ألا تنتهي طوال عمرك.

كما قال الإمام أحمد: مع المحبرة إلى المقبرة.

قيل لعبد الله بن مبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال لعل الكلمة التي فيها نجاتي لم أكتبها بعد.

كل كلمة بنجاة، كل كلمة بحياة، كل كلمة بتثقيل موازين، كل آية، كل حديث.

فتكون البداية هي الشفاء من مرض الجهل، أصل الأمراض كلها الجهل بالله.

{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٧].

قال قتادة: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

كل من عصى الله فهو جاهل، كل من عصى الله فهو ماذا؟ فهو جاهل، ليس هناك معصية تقع على وجه الأرض إلا بجهل، بجهل بقدر الله، بجهل بعظمة الله، بجهل بشرع الله.

لكن ليس الجهل المعذور فيه؛ لأن لو الجهل المعذور فيه لن تستوجب منه أي توبة.

لكن الجهل المقصود هنا في الآية هو الجهل بقدر الله، وعظمة الله في قلبك، وأنت تعلم أن هذا الأمر حرام، لكن أنت ضعفت.

لماذا؟ لأن الشهوة غلبتك.

لماذا غلبتك؟ لأنك لم تستحضر نظر الله، وقوة الله، وبطش الله، وعقاب الله، وانتقام الله.

لذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهو مُؤْمِنٌ".

فهل هو كافر؟ لا، هو مؤمن، لكن مؤمن ناقص الإيمان، ليس كامل الإيمان؛ لأنه لو كان كامل الإيمان لن يزني.

فلماذا زنى؟ لأن الإيمان نقص قليلًا،

هو يعرف أن الزنا حرام.

لكن استحضاره للعذاب، واستحضاره لعقاب الله، واستحضاره للآيات والأحاديث قل قليلًا، وغلبت الشهوة.

والمثيرات التي حوله جعلته يسقط في المعصية.

فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وزيادة العلم تؤدي لزيادة الإيمان، زيادة العلم تؤدي إلى زيادة الإيمان، ونقص العلم يؤدي لنقص الإيمان.

قال: "قَتَلوهُ قتلَهُمُ اللَّهُ ألا سألوا إذْ لَم يعلَموا فإنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ".

العي هو المريض، "إنَّما كانَ يَكْفيهِ أن يتيمَّمَ ويعصرَ – أو يعصبَ شَكَّ موسَى – علَى جرحِهِ خرقةً ثمَّ يمسحَ عليها ويغسِلَ سائرَ جسدِهِ".

فأخبر أن الجهل داء وأن شفائه السؤال.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء.

فقال تعالى...

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[فصلت:٤٤].

وقال تعالى...

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[الإسراء:٨٢].

و "مِن" هنا لبيان الجنس، لا للتبعيض

فإن القرآن كله شفاء.

كما قال في الآية المتقدمة فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب.

فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: "انْطَلَقَ نَفَرٌ مِن أَصْحَابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حتَّى نَزَلُوا علَى حَيٍّ مِن أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فأبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذلكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا له بكُلِّ شَيءٍ، لا يَنْفَعُهُ شَيءٌ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: لو أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيءٌ، فأتَوْهُمْ، فَقالوا: يا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا له بكُلِّ شَيءٍ، لا يَنْفَعُهُ؛ فَهلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنكُم مِن شَيءٍ؟ فَقالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَما أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ علَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عليه، وَيَقْرَأُ: (الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)، فَكَأَنَّما نُشِطَ مِن عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَما به قَلَبَةٌ، قالَ: فأوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذي صَالَحُوهُمْ عليه، فَقالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقالَ الَّذي رَقَى: لا تَفْعَلُوا حتَّى نَأْتِيَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَنَذْكُرَ له الَّذي كَانَ، فَنَنْظُرَ ما يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَذَكَرُوا له، فَقالَ: وَما يُدْرِيكَ أنَّهَا رُقْيَةٌ؟ ثُمَّ قالَ: قدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لي معكُمْ سَهْمًا. فَضَحِكَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ".

انطلق نفر من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، لم يعرفوا أن يعالجوه.

فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الحي أو هؤلاء الرهط، الرجال الذين نزلوا، على المسلمين، لعله أن يكون عند بعضهم شيء يعني دواء، فأتوهم فقالوا يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم من شيء؟

فقال بعضهم الذي هو أبو سعيد الخدري: والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم، يعني طلبنا منكم أن تضيفونا فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لي جعلة، أي تجعلوا لي جائزة، فصالحوهم على قطيع من الغنم

فانطلق يتفل عليه، يتفل بريقه ويقرأ الحمد لله رب العالمين، فكان كأنما نشط من عقال، فعلًا الرقية جابت أثرها

لأن القرآن شفاء، فانطلق يمشي وما به قلبة، حتى ليس به عدم اتزان، ثابت على الأرض.

فأوفوهم جعلهم، أي يعطوهم قطيع الغنم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم اقتسموا.

فقال له انتظر حتى نذهب للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال الذي رقى لا نفعل حتى نأتي النبي (صلى الله عليه وسلم) فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا.

فقدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكروا له ذلك، فقال وما يدريك أنها رقية؟ هذا على سبيل الاستفهام،

وليس على سبيل الاستنكار.

النبي (صلى الله عليه وسلم) أقر أنها رقية وأقر أنهم أخذوا جُعلًا.

ثم قال قد أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهمًا.

قال ابن القيم: فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، (هو القرآن)، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيبًا.

فهل نحن نتعامل مع القرآن على أنه شفاء؟

الواقع يقول لا؛ لأنك أصلًا غير متصور ولا مدرك إنك مريض.

تتعامل معه بفضول وقتك، تعطيه إياه

عندما تكون غير منشغل، عندما يأتي شهر رمضان.

لو أنت مستحضر أنك مثخن بالمرض، مثخن بالجراحات، مثخن بالشهوات والشبهات، مثخن بالشك والريب والجهل وتحتاج القرآن لكي تُشفى.

لأننا قلنا إن الجهل مرض والعلم شفاء، الجحود والقسوة مرض واليقين والإيمان شفاء، ومصدره الأساسي هو القرآن.

كيف ستتعامل مع القرآن؟

كيف ستتعامل مع وردك اليومي؟

ستكون كأنك شخص عطشان وجائع ويستطعم، تقف مع الآية كأنه يرتشف من لذيذ معين القرآن.

ولذلك أول شيء في طريقك إلى الله قلنا طلب العلم، وأول طلب العلم القرآن.

كل ما شغلك عن القرآن فهو شؤم عليك.

القرآن حفظ فهم، تدبر، قيام بالليل، سماع، قراءة، تلاوة، أوراد، ثبات.

كل ما تبتعد عن القرآن اعلم أن التزامك ينقص، دينك ينقص، علاقتك بالله تضعف.

كل ما تقترب من القرآن سماعًا، تلاوة، فهمًا، تدبرًا، قيامًا بالليل، حفظًا، مراجعة، تفسيرًا، أنت يقينك يزيد، دينك يزيد، التزامك يزيد.

قال عبد الله بن مسعود: لا تسأل عن نفسك غير القرآن.

فإن كنت تحب القرآن أنت تحب الله،

فعلاقتك بالقرآن تساوي علاقتك بالله. قوية؟ تأخذه بقوة؟ موجود في حياتك وفي يومك بقوة؟ كل أوقاتك محور ارتكازها هو؟

في أي وقت فاضي في اليوم غير الورد الأساسي تكون مشتاق؟

وعندما تأتي بالورد لا تظل تنظر متي سوف تنتهي؟

لا، أنت تتعامل باشتياق، وتتعامل بشوق، تتعامل بتمسك وتمسيك، فتكون هكذا على الطريق الصحيح.

تقول لي أنا أطلب علم، أنا أذاكر، أصل أذاكر فقه، أصل أذاكر توحيد، ورد القرآن قبل كل ذلك.

على قدر فهم القرآن وحفظه ستجد العلوم الشرعية ميسرة؛ لأن العلوم الشرعية شرح وتفسير للقرآن والسنة.

مناطها الحقيقي، محورها الحقيقي الوحي، العلم هو العلم بالوحي، لذلك التعرض للوحي.

بعد هذا يذكر ابن القيم (رحمه الله) تجربة له مع سورة الفاتحة ويقول: ومكثت مدة يعتريني أدواء ولا أجد لها طبيبًا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

أي كان يتداوى على أثر هذا الحديث الذي رواه سعيد الخدري، كان يتداوى بالفاتحة، فكان يشفى بها ويصفها للناس ويشفون بها.

فلماذا نحن نقرأها ولا نُشفى بها؟

هذا هو السؤال الذي سوف نجيب عنه المرة القادمة بإذن الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي لكم.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.....